الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

كلية الآداب والفنون

قسم اللغة العربية

المقياس: نص أدبي قديم(النثر)، السنة الأولى ليسانس (الأفواج ب،ج، د)

المحاضرة الرابعة: فن الخطابة عبر العصور (العصر الجاهلي).

الأستاذة: بنّابي (جامعة وهران 01)

تمهيد: أعزّائي الطلبة، لقد كان موضوع محاضرتنا السابقة فن الخطابة الذي يعدّ من أبرز الفنون القولية تعبيرا عن أحوال المجتمع الوجدانية والاجتماعية والسياسية والدّينية والفكرية، وقد ركّزنا فيها على أهم المعلومات التي يجب معرفتها وإدراكها عن فن الخطابة بصفة عامة، على أن نواصل في هذه المحاضرة الحديث عن الموضوع نفسه ولكن بتفصيل أكثر، إذ سنتطرّق إلى الخطابة عند العرب عبر مختلف العصور، بدءا بالعصر الجاهلي مرورا بالعصر الإسلامي، وصولا إلى العصر الأموي الذي يعتبر أزهى عصورها.

*** الخطابة في العصر الجاهلي:**

لقد كان للخطابة في العصر الجاهلي شأن أي شأن، فهي أقدم فنون النّثر، لأنّها تعتمد على المشافهة فهي فن مخاطبة الجمهور بأسلوب يعتمد على الاستمالة وعلى إثارة عواطف السّامعين، وجذب انتباههم وتحريك مشاعرهم كما أنّها " أرّخت قبل الإسلام للمنازعات القبلية ولدهشة العربي التي بعثته على التأمّل في الكون والدّعوة للاعتبار بأحداثه وحقائقه"[1]، لذا يمكن القول أنّ الخطابة عند العرب كانت لهم ضرورية وفيهم فطرية، وإنما لم يصلنا منها

(1): عبد الجليل عبده شلبي، الخطابة وأعداد الخطيب، دار الشروق، القاهرة، 1968، ص145-146.

إلّا القليل معظمها أقوال وجيزة تُلقى ارتجالا في شتّى المناسبات، ومع ذلك فإنّ ما تبقّى من خطبهم يعدّ سجلا تاريخيا لماضيهم وخلاصة تجاربهم في الحياة.

ونظرا للمكانة التي كانت تحظى بها الخطابة فقد وقف أبو عمرو بن العلاء موقف المُوازن بين الشاعر والخطيب فنجده يقول: " كان الشاعر في الجاهلية يُقدَّم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يُقيّد عليهم مآثرهم ويفخّم ويهوّل على عدوّهم ومن غزاهم، ويُهيب من فرسانهم، ويُخوّف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم. فلمّا كثُر الّشعر والشّعراء، واتّخذوا الشّعر مكسبة ورجعوا إلى السرقة وتسرّعوا إلى أعراض النّاس صار الخطيب عندهم فوق الشّاعر"[1]. ويبدو أن الجاحظ قد أخذ بهذا الرّأي إن نجده يقول في موضع من كتابه:" وكان الشّاعر أرفع قدرا من الخطيب، وهم إليه أحوج لردّه مآثرهم عليهم، وتذكيرهم بأيامهم. فلمّا كثُر الشعراء وكثُر الشّعر صار الخطيب أعظم قدرا من الشّاعر"[2]

يتّضح من القولين السابقين أنّ الجاحظ يجعل كثرة الشّعر والشّعراء وحدها هي السّبب في تقدّم الخطباء أمّا أبو عمرو ابن العلاء فيردّ ذلك إلى أنّ هذه الكثرة استتبعت تحوّل الشعراء إلى التكسّب بشعرهم، ومسارعتهم إلى الطّعن في الأعراض، إلا أنّ ما يبدو منطقيا أكثر هو أنّ تفوّق الخطيب على الشاعر في الجاهلية يرجع إلى مجموعة من الأسباب منها أنّ الخطابة كانت من لوازم سادتهم الذين يتكلّمون باسمهم في المواسم والمحافل العظام، ومن أجل ذلك كانت تقترن بها الحكمة والشّوق والرّياسة، كما تقترن بها الشّجاعة، ويتّضح ذلك في مراثيهم ومدائحهم لسادتهم.

وربما من بين أسباب تفوّق الخطيب على الشاعر في الجاهلية هو اتساع وظيفته، فقد كان يفاخر ويُنافر عن قومه فيشترك بذلك مع الشاعر كما يشترك معه في الحظّ على القتال،

---

(1): الجاحظ عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ج4، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،1779،ص83

(2): المرجع نفسه، ج1، ص241.

ولكنّه يتفرّد بمواقف خاصة به كالوفادة على الملوك، وكالنّصح والإرشاد، وخطبهم في الإملاك والزواج مشهورة، ومن أهمّ المواقف التي ينفرد بها أنّه كان يدعو إلى السّلم، وأن تخبو نيران الحرب بين القبائل المتخاصمة، بخلاف الشّاعر الذي لم يكن يدعو إلّا إلى الثأر، وإشعال نار الحرب. [1]

*** دواعي الخطابة في العصر الجاهلي:**

لا يمكن لأي نوع أو جنس أدبي أن يظهر أو يتطوّر إلا إذا توفّرت له الدّواعي والأسباب والأمر نفسه ينطبق على الخطابة، فقد توفّرت لها مجموعة من الأسباب التي ساعدت على ظهورها في العصر الجاهلي سنحاول أن نجملها في النقاط الآتية [2]:

- كثرة الخصومات وما تنتهي إليه من حرب أو سلم.
- وجود أسواق كثيرة يلتقون فيها فيتفاخرون بأنسابهم وأحسابهم، وقد يدخل بعضهم في منافرة مع غيره.
- كثرة الوفادات على أمراء الغساسنة والمناذرة.
- عادات العرب في الجاهلية والتي وسّعت نطاق الخطابة وأنواع الخطب كنيابة ولي الزوج لإلقاء خُطبة عند أهل الفتاة لتعداد خصال الخاطب ومآثره.

*** أشهر خطباء العصر الجاهلي:**

هناك عدد كبير من الخطباء الذين ذاع صيتهم في العصر الجاهلي نذكر بعضهم لأنّنا لا نستطيع ذكر الكل ومن بين هؤلاء:

قس بن ساعدة الإيادي وقد أدركه الرسول صلى الله عليه وسلّم، سحبان بن وائل الباهلي الذي ضرب المثل بفصاحته، ضمرة بن ضمرة، أكثم بن صيفي، عتبة بن ربيعة، قيس ابن

---

(1): ينظر: حسين علي الهنداوي، أشكال الخطاب الفنّي النثري في العصر الجاهلي،

(2): ينظر: جامعة القدس المفتوحة، فنون النّثر العربي القديم، ط1، 2007، ص20.

الشمّاس، المخبّل السّعدي، لبيد بن ربيعة، عمرو بن كلثوم، هيدان بن شيخ، العشراء ابن جابر، خويلد بن عمرو خطيب يوم الفجار، قيس بن خارجة بن سنان، حنظلة بن ضرار خطيب بني ضبّة.

*** سنن الخطباء في العصر الجاهلي:**

هناك مجموعة من التقاليد التي عكف العرب في العصر الجاهلي على إتّباعها عند إلقائهم لخُطبهم الهدف منها الارتقاء بفن الخطابة، ومن بين هذه التقاليد أن الخطباء كانوا يعتلون رواحلهم عند ألقائهم لخطبهم من أجل أن يراهم القريب والبعيد بالإضافة إلى أنّهم كانوا يلوثون العمائم على رؤوسهم لتزيدهم وقارا ورفعة، كما كانوا يرفقون نطقهم بالإشارة بالعصي والمخاصر فتبلّغهم هذه الإشارات الموزونة مواطن التأثير في نفوس القوم.

وقد عاب الشعوبيون على خطباء العرب حملهم للمخاصر والعصي، فكان ردّ الجاحظ على هؤلاء بقوله: "إنّ حمل العصا والمخصرة دليل على التأهّب للخطبة، والتهيّؤ للإطناب والإطالة، وذلك شيء خاص في خطباء العرب ومقصور عليهم ومنسوب إليهم، حتّى إنّهم ليذهبون في حوائجهم والمخاصر في أيديهم إلفا لها وتوقّعا لبعض ما يوجب حملها والإشارة بها". [1]

وممّا يُمتدح في الخطيب "أن يكون جهوري الصّوت، شديد العارضة، قويّ الحجّة، كثير الرّيق، حاضر البديهة، حسن الالتفات، قويّ الشّخصية، قادرا على إقناع النّاس بما يرى أنّه الحق. وربّما لجأ الخطيب إلى اصطناع الجهارة في الصوت، واصطناع السّعة في الشّدق، والتّلاعب بالصّوت تضخيما وتفخيما، وتوقيعا وتنغيما حتّى يسحر السّامعين بالصّوت قبل

(1): الجاحظ، البيان والتبيين، ج3، ص17.

أن يقنعهم بالحجّة"[1]، وممّا تجدر الإشارة إليه هنا أنّ هذه السّنن كانت في بعض الأحيان السّبب في رواج خطبة ما وتخليدها.

*** أنواع الخطب في العصر الجاهلي:**

تنقسم الخطب في العصر الجاهلي إلى أنواع حسب الأسباب والمناسبات التي تُلقى من أجلها، وأهمّ هذه الأنواع هي:[2]

1-خطب المنافرة: المنافرة والمفاخرة بمعنى واحد، وهي المباهاة في الجمع المحتشد بفضائل القوم والنّسب والأصل ومن أهم المنافرات: منافرة **علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل** حينما تنازعا الريّاسة.

2-خطب الوعظ: هي خطب يلقيها الاهلي في أيام السّلم عندما يفرغ من أعماله وفي أيام الحرب عندما ينهي غزوه فيُعمل فكره في التأمّل في أمور الحياة ليصل إلى حقائق يسيئه أن يغفل قومه عنها، فيحاول إرشادهم إليها وهي حقائق تلتقي في معظمها عند مشكلة الموت والمعاناة من الضياع.

3-خطب الحرب: حيث تغلب الحماسة والغضب على الحكمة والحلم فيتبارى الخطباء والشّعراء في إشعال النيران التي تحترق بها القبائل، وقد تخرج هذه الخطب عن إطار الصّراع بين القبائل إلى إطار الحمية القومية، فيُذكّر الخطيب بالقيم ويزهّد في الحياة ويرغّب في القتال.

4-خطب الزّواج أو الإملاك: في هذا النّمط من الخطب مظهر من مظاهر رقي العرب، وشكل من أشكال التعبير عن تواصلهم الإنساني، وفحواه أن يعلن الخطيب مناقب الخاطب

---

(2): غازي طليمات وعرفان الأشقر، الأدب الجاهلي قضاياه. أغراضه. أعلامه. فنونه، مكتبة الإيمان، دمشق، ط1، 1993، ص547.

(2): ينظر: غازي طليمات وعرفان الأشقر، الأدب الجاهلي قضاياه. أغراضه. أعلامه. فنونه، ص678-683.

ليظفر بالقبول من أهل المخطوبة، وربّما نهض خطيب من قوم المخطوبة فتكلّم، فيكون الكلام ردا لبقا يؤنس النّاس ويَبين عن مكارم الأخلاق.

5-خطب الصّلح: كثيرا ما كانت الحروب تنتهي بالصلح بين المتخاصمين وهذا بتدخّل أهل الرّأي السّديد وذوي العزم من أهل المكانة، فيقضون على العداوة التي كانت بين المتخاصمين وينشرون السلم، ومن أشهر الخطباء الذين قالوا في هذا الأمر **أكثم ابن صيفي.**

6-خطب التعزية والتهنئة: يتميّز العربي بأنّه ذو مشاعر جياشة وإحساس مرهف فقد يدفعه ألم الفقد إلى التعزية بما يحزن ويذكر محامد الفقيد، كما قد يدفعه الفرح إلى التهنئة.

ولمّا كانت حياة القوم بين بؤس وفرح فقد كثُر كلامهم في التعزية والتهنئة، فكانوا إذا عزّوا حاولوا أن يهوّنوا من شأن الدّنيا، وأن يزهّدوا في ترفها، لأنّها إلى زوال، وإذا هنأوا يذكرون فضل المهنّأ، ويذكّرونه بفضل الله عليه، وكأنّهم بذلك يكفونه عن الغرور.

هذه أهمّ أنواع الخطب التي كانت سائدة في العصر الجاهلي بشرح مقتضب.*

*** خصائص الخطابة في العصر الجاهلي:**

تتميّز الخطبة الجاهلية عن غيرها من خطب باقي العصور بمجموعة من الخصائص منها:

- وضوح الفكرة.
- جودة العبارة وسلامة ألفاظها.
- الإكثار من السّجع غير المتكلّف.

*للتفصيل أكثر في هذه الأنواع يمكن العودة إلى كتاب: غازي طليمات وعرفان الأشقر، الأدب الجاهلي قضاياه. أغراضه. أعلامه، وكتاب محمد أبو زهرة، الخطابة. تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، مطبعة العلوم، ط1، 1934، ص261-263.

- التنوّع في الأسلوب بين الخبري والإنشائي.
- قلّة الصّور البيانية.
- استخدام الأسلوب المرسل في خطب المحافل وإصلاح ذات البين، ولا يغفل صاحب الأسلوب المرسل – في الوقت نفسه–عن تجويد وتنقيح خطبته، والتروّي فيها، سعيا إلى إثارة السّامعين واستمالتهم.
- إيثار قصر العبارة، وتوشيحها ببعض الحكم والأمثال.
- قد تطول الخطبة، وقد تقصر، ولكل منهما مقام وموضع وقدر من العناية. [1]

هذا عموما ما يمكن أن نقوله حول موضوع الخطابة في العصر الجاهلي، ويمكن لمن يريد التوسّع أكثر أن يعود إلى المراجع المعتمدة في الدّرس، على أن نلتقي في محاضرة لاحقة لنتناول موضوع الخطابة في العصر الإسلامي.

أمّا عن حصة التطبيق فستكون حول خطبة من العصر الجاهلي لأحد أشهر خطباء هذا العصر.

دُمتم ودامت صحّتكم ونشاطكم، لكم منّي كلّ الأماني الطيّبة، وإلى الملتقى أحبّتي في رعاية المولى.

أستاذة المقياس: بنّابي.

(1): حسين علي الهنداوي، أشكال الخطاب الفنّي النثري في العصر الجاهلي.